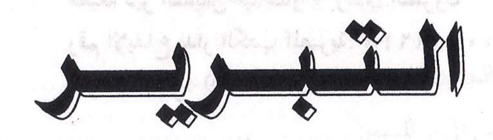
دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت



الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت



التبرير

بين الماضي والحاضر
وبين الإيمان والعمل

الأب متى المسكين

كتاب: التبرير بين الماضي والحاضر وبين الإيمان والعمل.
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: أبريل ١٩٧٣
الطبعة الثانية: مارس ١٩٨٠.
الطبعة الثالثة: ٢٠٠٥
الطبعة الرابعة: ٢٠١١.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٦١٨/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولي: 9-231-240-977

يُطلب من:
دار مجلة مـــرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

الفصل الأول

مقدمة ٥

التبرير في العهد القديم ٧

- كشف الخديعة وتصحيح الوضع: الله هو الذي يبرِّر ٩
- بر الله (في العهد القديم): ١٠
- بر الإنسان (في العهد القديم): ١٤

الفصل الثاني

«البر» في العهد الجديد ٢٠

- من بر الناموس إلى بر المسيح: ٢٠
- كيف أعلن الله بره في شخص يسوع المسيح: ٢٥
- البر بذبيحة المسيح وتغطيتها للماضي والحاضر والمستقبل: ٢٦
- بر الله: ٢٦
  - ✦ بر الله يسعى خلفنا ٢٧
  - ✦ بر الله يُدخلنا إلى الله ٢٧
  - ✦ بر الله قضاء ورحمة ٢٧
  - ✦ التبرير يؤهلنا للعمل ٢٨
  - ✦ التبرير سلاح ضد الخطية ٢٨
  - ✦ الخطيئة تعطل عمل التبرير ٢٩
  - ✦ ثمر البر يُزرع في سلام ٢٩
  - ✦ البر شهادة سمائية ولقب شرعي ٣٠
  - ✦ البر امتياز عمل ٣٠
  - ✦ في التبرير تكتمل مسرة الله وتنجح نعمته ٣١
  - ✦ التبرير يعبُر بنا من الماضي إلى المستقبل عَبْر حاضر مملوء نعمة ٣١
  - ✦ من إيمان لإيمان ٣٢
  - ✦ البر يؤهل لحياة إيمان دائم ووجود مستمر في حضرة الله ٣٢
  - ✦ التبرير يزرعنا كأعضاء في جسد المسيح ٣٢
  - ✦ البر الذاتي يجعل جسد المسيح يلفظنا خارجاً ٣٣

✦ لكي نلتحم في بر الله، يلزمنا خضوع كلي لله وانسجام في العمل بوصاياه ٣٤
✦ عمل الناموس لا يبرر ولكن عمل الإيمان يبرر ٣٥
✦ التبرير ليس استحقاقاً بل "تجاوز عدم الاستحقاق" ٣٥
✦ التبرير ينشئ بعمل الإيمان رجاء ممتداً بقدر أمانتنا ٣٦
✦ التبرير يتثبت أو يتزعزع بالسلوك ٣٧
● التبرير والسلوك ٣٧
✦ البر الكاذب ينشئ رجاءً كاذباً ٣٨
✦ السلوك الروحي يُسهِّل علينا العبور من حاضر البر إلى مستقبله ٣٨
● التبرير والخوف من الدينونة: ٣٩
✦ الخوف من الدينونة لا يمكن فصله عن العفو الذي نترجاه............................٣٩
✦ الخوف من الدينونة يزيد من خضوعنا ويؤمِّنا ضد الطمأنينة الكاذبة ٤٠
✦ التوازن بين الثقة في العفو والخوف من الدينونة ٤٠
✦ منظر المسيح ممزقاً على الصليب يذكِّرنا دائماً بخطورة عدل الله.....................٤١
✦ دعوة المسيح لنا بحمل الصليب هي دعوة لممارسة قضاء الله إنما في ظل مساعدته ٤١
✦ التبرير عبور متواصل من قضاء إلى عفو ٤٢
✦ ومن دينونة إلى رحمة ٤٢
● التبرير والقداسة: ٤٣
✦ تبرير المسيح يرفع سلوكنا إلى مستوى معين من القداسة نلتزم به.....................٤٣

نحصل عليه في المعمودية بصبغة الروح القدس][2]. ومن هذا يتبين لي **أن التبرير عند آباء الكنيسة الأوائل يعني التقديس الإيجابي**، أي يؤهل لحياة القداسة، وأن المعمودية واسطته الأولى والعظمى والتوبة واسطته الثانية الدائمة. وهذا يعني أن الإيمان بالمسيح هو الذي فيه نتبرر، وبعمل التوبة المستمر نتشبث بالبر الموهوب لنا به ليصير التبرير حياة مقدسة دائمة في المسيح.

أما الموضع الآخر الذي ذُكر فيه التبرير في كتابات الآباء، فجاء ضمن كتابات القديس كيرلس الكبير في مجموعة شروحاته على العهد القديم، وعددهم سبعة عشر كتاباً بعنوان: «توقير الله وعبادته بالروح والحق» حيث احتل موضوع التبرير كتابين كاملين من مجموع هذه الكتب السبعة عشر، وهما الكتاب الثاني والثالث وجعلهما بعنوان: «التبرير بالمسيح كواسطة لنوال الخلاص». **(P. G. 68, 133-1125)**[3]

وهكذا يظل رأينا التقليدي الأرثوذكسي ناقصاً أشد النقص في مفهوم التبرير والخلاص إلى أن يرسل الله لنا من يُخرج لنا عقيدتنا الصحيحة، التي تضافر كل العلماء معاً على طمس معالمها ورفضوا جميعاً الاشتغال بترجمتها أو البحث فيها إمعاناً في إخفاء حق كنيسة مصر.



---

(2) Quasten, *Patrology* I, p. 99.

(3) Ibid. III, p. 121.

مُقدّمة

يحتل موضوع التبرير مكاناً كبيراً للغاية في مفهوم المسيحية عموماً، ويُعتبر التبرير بحسب القانون الذي حدده بولس الرسول: «**نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح**» (**غل ٢: ١٦**)، **هو نقطة التحول العظمى من العبادة اليهودية إلى العبادة المسيحية**. وعلى مدى كل رسائل بولس الرسول نجد التركيز على مفهوم التبرير بالمسيح أساساً لكل المفهومات الأخرى عن الفداء والخلاص والغفران والمصالحة، بل وحتى الإيمان نفسه.

لذلك، وإذ قد استرعى نظري هذا الأمر، رأيتُ أن أفحص موضوع التبرير في العهد القديم والعهد الجديد لعلي أستمتع بمفاعيله الروحية الغنية.

وعندما رجعت إلى كتابات الآباء استرعى انتباهي ما جاء في كتاب «الراعي» لهرماس[1] بخصوص التبرير، إذ جاء على لسان ملاك التوبة لهرماس ما معناه [إن التبرير الذي يحصل عليه الإنسان بالتوبة - من بعد المعمودية - ليس هو فقط عملية تطهير بل هو تقديس إيجابي كالذي

---

(١) هو سفر رؤيوي **apocalyptic** أي كتاب استعلانات، تسلّمه الأسقف هرماس في روما من شخصيتين سماويتين: الشخصية الأولى امرأة طاعنة في السن والثانية ملاك على هيئة راعي، الذي بسبب كونه الشخصية الأولى في الكتاب استمد منه الكتاب اسمه (الراعي). وهو من مؤلفات بداية القرن الثاني.

الفصل الأول

التبرير في العهد القديم

كان التبرير في العهد القديم امتيازاً خاصاً لشعب الله: «افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة» (إش٢٦: ٢). وكان يعني أن الشعب أو أي فرد من أفراده يعيش في كنف الله - كملك وقاضٍ أعظم - منعَمًا عليه مجاناً بالخيرات الزمنية والسعادة الأبدية كحق اكتسبه بالتبعية لله.

ولما أعطى الله التوراة وما فيها من ناموس للشعب، اعتبره الشعب استعلاناً خاصاً «لبر الله» اختص به شعب إسرائيل دون جميع الشعوب. وبناءً على ذلك اعتُبر أن كل من يتمسك بناموس الله إنما يتمسك ببر الله، وكل من يعمل به يتبرر! وهكذا صار الناموس الذي كان يمثل واجبات العلاقة التي تربط الله بالإنسان واسطة لبر الإنسان. ثم تمادى المعلمون في تعليمهم حتى أصبح مقدار التدقيق في تكميل واجبات الناموس مصدراً لبر أكثر، وقليلاً قليلاً انتقل مفهوم التبرير عند الشعب من وضعه المجاني الذي كان بمقتضى التبعية لله البار، إلى مفهوم العمل بالناموس ليصير الإنسان باراً في نفسه. وانتهى الأمر بتعريف البار أنه الإنسان الأكثر التزاماً بتدقيقات الناموس! فيكون هو بالتالي الإنسان الأكثر استحقاقاً للخيرات الزمنية والسعادة الأبدية.

والذي يهمنا جداً من هذه المسلسلة القديمة في مفهوم التبرير ومؤهلات البار، هو الاقتناع الذي وصل إليه كل إسرائيلي وكل فريسي مخلص في عبادته وتدقيقه، أن التدقيق في تكميل الناموس أمر شاق جداً

ولا يمكن الوصول فيه إلى حالة كاملة. وماذا يكون معنى هذا؟ معناه أن الإنسان الذي كان يظن أنه بار بحسب ظواهر الأعمال رأى نفسه في النهاية مقصِّراً ومذنباً بحسب مجال التدقيق الذي لا نهاية له، وهذا ما سوف نراه بوضوح في تصريحات بطرس الرسول.

ولكن لم يقتصر الأمر على الشك في الحصول على البر إزاء التدقيقات في تكميل الناموس عند هذا الحد، بل ظهر أيضاً أن الأوامر الكثيرة والنواهي والتحذيرات السلوكية والأخلاقية لم تستطع على مدى آلاف السنين أن تغير شيئاً من طبيعة شعب الله. فالتعدي على الوصايا والناموس يزداد جيلاً بعد جيل، والخطيئة تتأصل وتملك وتسود على كل مستويات الشعب!! ما معنى هذا؟ معناه أن الناموس الذي كان يُظنُّ أنه مصدر تبرير، ثبت أنه لا يفيد شيئاً بل يزيد من ثقل الضمير وتعميق أثر الخطيئة في شعور الإنسان مع يأس مطلق. إذن فقد نجح الناموس فقط في إيقاظ ضمير الإنسان وتكوين ناموس آخر مكتوب في قلبه قادر على إقناع الإنسان بأنه تحت العقاب والدينونة، وليس كما كان يظن أنه مبرَّر بعمل الناموس بحد ذاته. هذا نراه واضحاً جداً في تصريحات بولس الرسول الكثيرة: «لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣: ٢٠)، «الناموس ينشئ غضباً إذ حيث ليس ناموس (الذي يقول لا تتعدَّى) ليس أيضاً تعدٍّ» (رو٥: ١٥)، «لم أعرف الخطية إلا بالناموس، فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته» (رو٧: ٧). وهكذا انتهى الناموس بأن أقنع الإنسان أنه قد أخطأ في تقديره أنه قادر أن يتبرر بأعمال الناموس! «وهكذا أُغلق على الكل تحت الخطية» (غل٣: ٢٢).

كشف الخديعة وتصحيح الوضع:

الله هو الذي يبرِّر

لقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بشهادة الضمير الذي أيقظه الناموس أنه «لو أُعطي ناموس قادر أن يُحيي لكان بالحقيقة البر بالناموس» (غل٣: ٢١). ولكن كل ما استطاع أن يعمله الناموس هو أن يحكم على المتعدي بالموت!! وإذ تعدى كل إنسان وصايا الناموس، دخل الجميع تحت «**حكم الموت**»، فالناموس، لم يُحيي بل أعطى حكماً بالموت «فوُجدت الوصية التي للحياة هي نفسها لي للموت» (رو٧: ١٠).

فأين الخطأ هنا؟ الخطأ هو في طبيعة الإنسان التي ملَكت عليها الخطيئة التي جاء الناموس ليكشفها ويفضحها، وليس لكي يرفعها. الخطأ هو اعتبار الناموس مُحيياً والعمل بالناموس يبرِّر، مع أن الله هو الذي يحيي وهو الذي يبرر! الخطأ أن الإنسان لم يلتفت إلى شهادة ضميره ويرتفع إلى مستوى بر الله الحقيقي حتى يرى أن كل أعماله وتدقيقاته هي في الحقيقة عجز في عجز، وادعاء في ادعاء، ونجاسة في نجاسة، أمام عيني الله الفاحصة الكُلى والقلوب، الكاشفة أستار الظلام!! وهل يمكن بواسطة الأعمال الجسدية والتدقيقات المظهرية أن نحيا ونتبرر داخلياً؟ هل الخارج يجدد ويُحيي الداخل؟ فإذا لم يكن الداخل حياً وجديداً فماذا تكون منفعة الأعمال والتدقيقات؟ هذا ما انتهى إليه بولس الرسول في كشفه لخديعة الاعتقاد في أن الإنسان الخاطئ يمكن أن يتبرر أمام الله بأعمال الناموس.

ولكن هذا الكشف - عند بولس الرسول - لم يَنْفِ اعتقاده في أهمية

الناموس والعمل بالناموس والتدقيق في الناموس قديماً، باعتبار أن ذلك كان شهادة وبرهاناً من واقع السلوك على أمانة الإنسان، ولو جزئياً، تجاه بر الله حيث مسرة الله لم تُستعلن قط إلا في الإنسان المطيع والخاضع لوصاياه. إذن، فالعمل بالناموس عند بولس الرسول لم يكن في نظره قادراً أن يبرر بل كان شهادة على بر الله ومسرته في الإنسان.

بر الله في العهد القديم:

الله بار، ولذلك فالبرُّ هو صفة حتمية لكل ما يقول وما يعمل: وهذه الحقيقة هي الأساس الراسخ الذي لا يتزعزع أبداً في كل العهد القديم. وكون الله باراً جداً هي حقيقة مؤكدة يبني عليها كل نبي وكل كاهن وكل فرد في الشعب ثقته وإيمانه ورجاءه في الله، وينظر من خلالها إلى كل تصرفات الله فردية كانت أو شعبية، وبالأخص بالنسبة لنواميسه ووصاياه، فالبر يسكن في كل حرف ويعمل في كل أمر ويضمن كل طاعة. ولهذا أصبح الحكم والقضاء بمقتضى شريعة الله يتَّصف بالبر مهما بلغت قسوته، حتى أن مجرد إقامة حكم ما أو تنفيذ قضاء بحسب ناموس الله يُعتبر ممارسة لبر الله، فـ "الله بار" و"الله قاضٍ" هما حقيقة واحدة: «لا تنظروا إلى الوجوه في القضاء (بتأثير الشفقة أو الرحمة أو الكرامة)، للصغير كالكبير تسمعون، لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله»!! (تث ١: ١٧).

والحاكم أو القاضي في العهد القديم – وكان في البداية هو رئيس الكهنة[٤] – لا يقف للقضاء إلا وهو لابس صُدرة القضاء (ولا يزال حتى اليوم في جميع أنحاء العالم يرتدي القاضي والمحامون الوشاح الخاص بالقضاة والمحامين باعتبار أنهم يمثلون قضاء الله، وهو تقليد كتابي من العهد القديم بلا أدنى شك!!). وصُدرة القضاء إشارة وتعبير عن أن القضاء هو لله، أي أن الإنسان لا يحكم على الإنسان إلا بمقتضى حكم الله وبره!! «**وتصنع صدرة قضاء** صَنْعة حائك حاذق كصنعة الرداء تصنعها... ولا تنزع الصدرة عن الرداء، **فيحمل هرون أسماء** بني إسرائيل في **صُدرة القضاء على قلبه عند دخوله إلى القدس** للتذكار أمام الرب دائماً... وتجعل في صدرة القضاء الأوريم والتميم»[٥] (خر٢٨: ١٥-٣٠). والقضاء في إسرائيل لم يكن يشمل معنى الحكم فقط بل يشمل معنى التعليم، تعليم الأحكام والنواميس الإلهية الذي يتم الحكم بمقتضاها: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته... ولبني لاوي (الكهنة) قال: **أعطِهمْ** (يا رب) **استعلاناتهم** (للقضاء)[٦]... **حفظوا كلامك وصانوا عهدك يستعلنون**

---

(٤) كان بابا الإسكندرية في أيام القديس أثناسيوس الرسولي يُدعى قاضي المسكونة، وهو استمرار لمفهوم رئيس الكهنة في العهد القديم.

(٥) الأوريم والتميم حجران كريمان يشعَّان نوراً إلهياً أحدهما يسمى الحق والآخر يسمى الاستعلان، الأول يعطي إشارة الحق والآخر يعطي بصيرة في الحكم.

(٦) جاء – في النسخة العبرية – بدل كلمة «الاستعلان» كلمة «الأوريم والتميم» وهما حجران يشعان بريقاً، وكان على ضوئهما يدرك رئيس الكهنة رأي الله ومشورته أثناء القضاء. وبذلك نجد النسخة السبعينية تشرح معنى الأوريم والتميم باختصار ووضوح.

ليعقوب أحكامك ولإسرائيل ناموسك ويقدمون بخوراً في وقت غضبك على مذبحك دائماً» (تث٣٣: ١، ٨، ١٠ النسخة السبعينية).

وهكذا يقف الله في العهد القديم موقف القاضي الأعلى الذي يحكم بمقتضى برِّه الشخصي المذخر في أوامره ووصاياه لشعبه، وذلك على فم رئيس الكهنة عندما يلهمه الحق والاستعلان عن طريق صدرة القضاء.

وهذا الوضع الإلهي فيما يختص بقضاء الله وبره لم يتأسس فقط في أيام موسى، بل كان معروفاً جيداً منذ أيام إبراهيم، لا بالأوريم والتميم، إنما **بإلهام خاص استودعه الله في قلب إبراهيم فكان له أساس إيمان:** «أديَّان كل الأرض لا يصنع عدلاً» (تك ١٨: ٢٥). وهكذا نجد بمنتهى الوضوح أن إيمان إبراهيم كان يقوم أيضاً وبالدرجة الأولى على أساس بر الله المعلن بالإلهام لإبراهيم!! ومن شهادة إبراهيم هذه ندرك مقدار الثقة التي كانت عند إبراهيم أنه مستحيل على الله أن يجري قضاءً مهما كان إلا والعدل أو البر منطقه!! **هذه الثقة الأكيدة ببر الله وعدله هي التي أنشأت في إبراهيم إيماناً لا يتزعزع بأن أحكام الله بارة وقضاءه عادل جداً وأوامره صادقة كل الصدق لا تحتمل إلا الخضوع الكامل** الذي لا يشوبه شك! وهذا بعينه هو الذي جعله لا يتوانى عن تقديم ابنه ذبيحة حسب طلب الله دون أن يشك لحظة. وهكذا انطلق الإيمان الراسخ ببر الله عند إبراهيم إلى عمل شجاع في طاعة مذعنة لأمر الله، وماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة مملوءة عجباً فقد حسب الله إيمان إبراهيم المدعم بالطاعة والعمل إلى بر شخصي له «قد حُسب إيمانه براً» (تك١٥: ٦، غل٣: ٦)! أي لما وثق في بر الله تبرر.

وهكذا نشأت المسلسلة العجيبة: استعلان بر الله أنشأ في إبراهيم ثقة بالله

وإيماناً قوياً، والإيمان القوي أنشأ عملاً مذهلاً في طاعة الله حتى الذبح!!

ولكننا نجد أن عمل إبراهيم الإيماني هذا الذي قام أساساً على استعلان شخصي لبر الله صار خبرة مذخرة للبشرية كلها وأساساً لإيمانه الذي لا يتزعزع، لذلك دُعي إبراهيم أباً للإيمان (رو٤: ١١، ١٢، غل٣: ٧)!!

ولكن إبراهيم لم يقف عند حدود الإيمان ببر الله، بل تعدى ذلك إلى عمل نال عليه براً من الله أو بر الله. وهكذا سلَّم إبراهيم للبشرية سر الانتقال من الإيمان ببر الله إلى الدخول في بر الله بالعمل والطاعة، الذي سماه الله «بك تتبارك كل الأمم». هذه هي بركة إبراهيم التي آلت إلينا، أن نحصل على بر الله لنؤهَّل لشجاعة العمل بناموس الله الفائق للعقل والطبيعة، العمل القائم على الإيمان والثقة المطلقة بالله وصدق أحكامه ومواعيده!!

ويحاول الأنبياء دائماً أن يقنعوا الشعب أن قضاء الله ينبغي أن يكون مفهوماً ومحبوباً لدينا جداً ومقبولاً قبولاً طبيعياً ليتحكم في فكرنا وتصورنا وتدبيرنا وحركتنا، على أساس أنه قضاء يتمشى مع حياتنا وبركتنا لأنه قضاء بار جداً جداً، وكامل في بره كمالاً يلغي كل شك ويتخطى كل عجز عن فهمه في وقته، مهما كان فيه من مظاهر الشدة والقسوة والتأديب!! اسمع ما يقوله إرميا النبي بخصوص ما ينبغي أن يكون عليه قضاء الله في حياتنا: «اللقلق في السماوات يعرف ميعاده، واليمامة والسنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيئها، (هجرة الطيور وعودتها إلى ديارها كناية عن التوبة والرجوع إلى الله من موطن الغربة)، أما شعبي فلم يعرف قضاء الرب» (أي أنه لم يُقبل على أحكام الله وطرقه بفرح

كمن يعود إلى موطن راحته) (إر٨: ٧) وماذا يعنى هذا؟ يعني أنه لا ينبغي أن يشك إنسان قط في أحكام الله وقضائه لأن بر الله مُعلَنٌ في أحكامه وقضائه ويعمل من خلالها لراحتنا وقيادتنا إلى موطننا الحقيقي في الميعاد الحسن، كما تعمل الغريزة الصالحة المنغرسة في طبيعة الطيور لتحثها إلى العودة إلى وطنها.

بر الإنسان في العهد القديم:

الانتقال من النظرة إلى بر الله (عند الإنسان الصالح الذي يؤمن ببر الله وعدله المطلق) إلى النظرة إلى بر الإنسان، تسير سهلة جداً في العهد القديم، لأن الإنسان الذي يتمسك تمسكاً لا هوادة فيه بالإيمان ببر الله ناظراً إلى كل أحكام الله وتصرفاته العامة والخاصة أنها صادقة وأمينة وبارة هو في الواقع إنسان تلاشت من عنده كل دوافع الخوف والجبن والشعور بالبؤس أو القلق أو الظلم، وبالتالي هو إنسان أصبح ممسكاً بشدة ببر الله من خلال وصاياه وأوامره وأحكامه؛ لذلك لا يلجأ إلى مراجعة الله في تدبيره ولا يقدم لله ملتمساً بتصحيح حكم صدر ضده، كأن عدل الإنسان يمكن أن يكون أكثر تبصُّراً وحقاً من عدل الله. هنا يكاد الإنسان الصالح أن يكون على مستوى بر الله وعدله وذلك بقبوله وتسليمه الكامل بصحته وصدقه!!

فالإنسان البار في العهد القديم ويسمى باللغة العبرية **caddiq** "صدّيق" هو الإنسان الذي يكون الله قد أجرى معه فحصاً وقضاءً وحكَماً وأصدر في النهاية قراراً بتبريره أو براءته من اللوم، كإبراهيم الذي حُسب له إيمانه برًّا بعد الامتحان القاسي جداً الذي عبره بنجاح مذهل.

أما عكس البار فهو الشرير ويسمى بالعبرية **Rasha** "راشاع" وهو الإنسان الذي يدينه الله بسبب سقوطه في الامتحان.

والأمر في البار أو الشرير في العهد القديم مأخوذ بصورة مبسطة من واقع القضاء: «إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرِّروا البار، ويحكموا على المذنب» (تث٢٥: ١).

وهكذا نجد أن البار (الصدِّيق) في العهد القديم هو في الواقع إنسان برَّأه الله بعد أن اختبره، فوجده حسب قلبه أو ناموسه. وهذا ما حدث لداود بعد وهو فتى، فأولاً نجد داود فجأة في موضع الاختبار الشديد عندما سقط شاول الملك في يديه بينما كان يقتفي أثره ليقتله، فنجد داود لا يرد الإساءة بل يستر عدوه ويطلق سراحه: «فقال شاول قد أخطأت... فأجاب داود... **الرب يردُّ على كل واحد برَّه وأمانته،** لأنه قد دفعك الرب اليوم ليدي و لم أشأ أن أَمُدَّ يدي إلى مسيح الرب. وهوذا كما كانت نفسك عظيمة اليوم في عيني، كذلك لتعظم نفسي في عيني الرب فينقذني من كل ضيق» (١صم٢٦: ٢١-٢٤). ولذلك نجد الرب بعد اختبارات كثيرة مثل هذه يصدر قراره عن داود هكذا: «وجدتُ داود بن يسى رجلاً حسب قلبي» (أع١٣: ٢٢)!!

لذلك لا نستعجب بعد هذا كله عندما نسمع سليمان بن داود يصلي إلى الله هكذا وهو مطمئن تماماً: «فاسمع أنت من السماء واعملْ واقضِ بين عبيدك، إذَ تحكُم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه، **وتبرر البار إذ تعطيه حسب بره!**» (١مل٨: ٣٢).

ولكن يظل بر الإنسان دائماً أبداً مستمداً من إيمانه الشديد ببر الله

عندما يدفعه ليعمل ويجاهد لتتميم وصايا الله مهما كلفه ذلك من عناء وجهاد وخسارة، عالماً أنه في النهاية يتبرر!! «فأمرنا الرب أن نعمل جميع هذه الفرائض ونتقي الرب إلهنا، ليكون لنا خيرٌ كل الأيام، ويستبقينا كما في هذا اليوم، وإنه يكون لنا بِرٌّ إذا حفظنا جميع هذه الوصايا لنعملها أمام الرب إلهنا كما أوصانا» (تث٦: ٢٤، ٢٥).

وكلمة «بار» في العهد القديم لها مرادف مساوٍ لها تماماً بالعبرية "أميناه" **amunah**، وهي قريبة في نطقها ومعناها من كلمة أمين بالعربية. ويلاحظ أنها إحدى صفات الرب يسوع (رؤ٣: ١٤)، وينصبُّ معناها على الأمانة في تنفيذ وصايا الله مهما اكتنفها من تعب وشكوك وعثرات وظلمة وتهديد «والبار (أميناه) بإيمانه يحيا» (حبقوق٢: ٤). بمعنى أن الإنسان بسبب أمانته في الله وفي تتميم وصاياه ينجو حتماً من كل الفخاخ التي تُنصب حوله. وقد استخدم بولس الرسول هذه الآية في الموضع الذي يشدد فيه على أن إنجيل المسيح **يعلن برَّ الله** الذي يقودنا إلى الإيمان فنحيا بهذا الإيمان؛ على أساس بر الله الذي يشجعنا ويزكي جهادنا للعمل بوصايا الإنجيل! «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمِن،... لأن فيه مُعلَن بر الله بإيمان لإيمان، كما هو مكتوب أما البار فبالإيمان يحيا» (رو١: ١٦، ١٧).

وهكذا يأتي المرادف العبري أميناه **amunah** لكلمة بار (= صدِّيق **Caddiq**) ليُعمِّق ويُخصِب من اختصاص كلمة "بار"، فيعطيها لا مفهوم العمل الشجاع بالإيمان في طاعة وصايا الله فقط، بل والأمانة أيضاً في تنفيذ الوصية، على أساس أن بر الله القائم في الوصية يستلزم الأمانة والدقة في الممارسات والتنفيذ.

وفي ضوء هذه الآية الخطيرة «البار بالإيمان يحيا»، التي قالها حبقوق النبي كمعيار أساسي لعمل البر بالإيمان، نجد أن كل إخفاق وهزيمة وانكسار حدث لشعب الله في كل العصور السالفة كان سببه المباشر هو عدم تبرئة الله للشعب!! بسبب توقف وتعثر أمانة الشعب في بر الله، وبالتالي عجزه عن تنفيذ وصاياه بشجاعة وأمانة!! وهكذا قيل في أحد هذه المواقف: «في وسطك حرام يا إسرائيل» (يش٧: ١٣).

ومن هنا كان تمزق أيوب حينما داهمته التجربة واستمرت في تزايد مخيف حتى أتت على كل شيء له. ولكن رعبة أيوب المدعو "بالصدِّيق"، أي البار، لم تكن الخسارة أبداً أبداً؛ بل الشك المرعب الذي داهمه في بر الله وفي عدله!! هل يمكن أن يكون الله غير بار؟ هذا كان معناه عند أيوب أنه أصبح بلا رجاء حيث يكون الموت أفضل من الحياة جداً. فأخذ أيوب يصارع لا الله بل نفسه مصارعة لا هوادة فيها حتى استقر، بعد أن أعيت نفسه فيه، إلى حقيقة مذهلة جعلت الله يوقف التجربة ويخرج السبيكة الذهبية من النار وهي متوهجة بجمال رائع، ليعرضها على العالم كله عبر كل الدهور. وهذه الحقيقة مجملها كالآتي: إن أيوب قال علناً إني طالما أكملت وصايا القدير فهذا يكفيني وإني حتماً سأتبرأ أمامه!! أليس الله باراً؟ (اقرأ أي٣٠: ٢٥، والأصحاح الحادي والثلاثين كله).

وهكذا استطاع أيوب في النهاية أن يتجاوز شكَّه. وكانت غلطة أيوب الوحيدة التي عيَّره بها الله أنه استذنب الله ليتبرأ هو: «تستذنبني لكي تتبرر أنت؟» (أي٤٠: ٨). وحتى هذه الغلطة تجاوزها الله تماماً لأن أيوب اعتذر عنها. ولأنه كان في تبرئته لنفسه معتمداً على أنه أكمل

وصايا الله وأوامره معتمداً في ذلك على بر الله نفسه!!

لقد توقع أيوب في قلق بالغ أن من خلال تجربته يستعلن "بر الله" الذي تمسك به، والذي هو العلاقة الثابتة النهائية في نظره التي تَتَحَكَّم في كل أعمال الإنسان وَتَحكُم على حياته كلها وموته، فلما تأخر استعلانها طار صواب أيوب، وتحدى الحكماء الثلاثة الذين جاءوا ليعزُّوه ورفض تعزيتهم، فظهر لهم كأنه متمسك ببره: «فكفَّ هؤلاء الرجال الثلاثة عن مجاوبة أيوب لكونه باراً في عينيِّ نفسه!» (أي٣٢: ١)، لأن أيوب أظهر كأنه يتمسك ببرِّه فعلاً، ولكنه في الحقيقة كان يتشبث ببر الله على أساس أنه أكمل وصايا الله عن أمانة وإخلاص لله، ورفض أيوب رفضاً قاطعاً وبلا هوادة مبدأ الحكماء القائل إن الله إنما يعاقبه كأثيم أو يؤدبه كخاطئ: «فلا ترفض تأديب القدير» (أي٥: ١٧). وكان أيوب على صواب، واستُعلن بر الله في صف أيوب، وتزكى أيوب في كل ما قال وعمل، على أساس أن الله بار دائماً، ولا يمكن أن يكون الله لحظة واحدة غير ذلك! وأن ذلك كله لم يكن عقاباً أو تأديباً، بل امتحاناً للتزكية، ولإظهار بر أيوب الذي تمسك ببر الله ولم يُرخِه لحظة في كل أيام محنته. وكانت شهادة الله لأيوب قاطعة عندما وبَّخ الحكماء قائلاً: «الرب قال لأليفاز التيماني: قد احتمى غضبي عليك وعلى كلا صاحبيك، **لأنكم لم تقولوا فيَّ الصواب كعبدي أيوب**... وعبدي أيوب يصلي من أجلكم، لأني أرفع وجهه لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم (هنا حكمة هؤلاء الثلاثة على مدى هذا السفر كله أسماها الله حماقة)، لأنكم لم تقولوا فيَّ الصواب كعبدي أيوب!!» (أي٤٢: ٧، ٨).

ومن تجربة أيوب نتيقن تماماً أن بر الله دائماً أبداً وحتى في العهد القديم

لا يمكن أن تحجبه التجارب، بل تظهره وتزكّيه، وأن تبرير الله للإنسان يرتفع ويتضاعف بقدر تمسكه ببر الله من خلال إيمانه وتنفيذه لوصاياه!



الفصل الثاني

«البر» في العهد الجديد

من بر الناموس إلى بر المسيح:

لقد فحصنا حالة البر في العهد القديم بالنسبة للإنسان البار في وضعه الصحيح حيث يُدعى الإنسان باراً فقط حينما يُخضع نفسه لناموس الله، ويعمل وصاياه في طاعة وشجاعة، حيث يعتمد إيمانه مباشرة على بر الله الكائن في وصاياه.

ومن جهة هذا الوضع الصحيح يستشهد بولس الرسول في العهد الجديد بقول موسى النبي «لأن موسى يكتب في البر الذي بالناموس أن الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها» (رو١٠: ٥). أما تحقيق هذا الوعد بخصوص أن البر بالناموس يمكن أن يُحيي الإنسان (جسدياً)، فيمكن أن نراه بصورة ساطعة في تجربة دانيال الشُجاعة «فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة، ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة في عُلّيته نحو أورشليم، فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك» (دا ٦: ١٠).

فكان دانيال برهان صدق وعد الله على فم موسى بخصوص أعمال البر الذي في الناموس «التي إن عملها إنسان يحيا بها» (حز٢٠: ١٣، غل٣: ١٢)، حيث نجد أن شرط النجاة أو الحياة يتعلق أساساً بمقدار أمانتنا العملية لبر الله المعلن في الوصية! ولكن يظل مفهوم النجاة والحياة في حدود الحياة الجسدية فقط.

ولكن هذا البر الذي في الناموس حتى بهذه الصورة الجزئية، كقادر أن يُحيي، أي يُنجي من الموت الجسدي، توقَّف نهائياً بظهور المسيح. هذا هو الاكتشاف الخطير الذي اصطدم به بولس أولاً، ثم استوعبه جيداً وأعلنه بعد ذلك كأساس لإنجيل البر الذي كان ينادي به في كل رسائله «لأننا نحن الختان، الذين نعبد الله بالروح، ونفتخر في المسيح يسوع، ولا نتكل على الجسد، مع أن لي أن أتكل على الجسد أيضاً. إن ظن واحد آخر أن يتكل على الجسد فأنا بالأَوْلى. من جهة الختان مختون في اليوم الثامن، من جنس إسرائيل، من سبط بنيامين عبراني، من العبرانيين. من جهة الناموس فريسي، من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة، **من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم**، لكن ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبتُه من أجل المسيح خسارة، بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح وأُوجَد فيه. **وليس لي بري الذي من الناموس، بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان**» (في٣: ٣-٩).

اكتشاف بولس الرسول هذا يُعتبر خطيراً للغاية، لأنه أحدث نقطة التحول العظمى من العبادة اليهودية إلى العبادة المسيحية التي أنهت على التبرير بالناموس إلى الأبد. ولقد كانت وقفة بولس الرسول في وجه بطرس الرسول في هذا الأمر من أخطر الوقفات في تاريخ الكرازة باسم المسيح، إذ أعلن في صراحة ووضوح ولأول مرة في الإنجيل كله **«إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح**، آمنَّا نحن أيضاً بيسوع المسيح، **لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس**،

لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما!!» (غل٢: ١٦).

هنا بولس الرسول لا يهدم أعمال الناموس أو يتحدى الناموس في حد ذاته، بل هو يهدم عقيدة التبرير بالناموس أصلاً، لأنه يشهد في رسالة رومية أن الناموس في حد ذاته روحي ومقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة (رو٧: ١٢).

ولكن بظهور البر الذي بموت المسيح - الذي هو قادر الآن أن يحيينا من الموت روحياً - انتهى أن يكون الناموس مصدر بر أو حياة «لأنه إن كان بالناموس برٌّ، فالمسيح إذاً مات بلا سبب» (غل٢: ٢١). أي أن البر الذي حصلت عليه البشرية بموت المسيح ألغى التبرير بالناموس، ولكنه لم يُلغِ الناموس ذاته، لأن الناموس هو عبارة عن وصايا إلهية مقدسة وعادلة وصالحة «فهل الناموس ضد مواعيد الله؟ حاشا! لأنه لو أُعطي ناموس قادر أن يُحيي (حياة أبدية) لكان بالحقيقة البرُّ بالناموس» (غل٣: ٢١). ولكن الناموس غير قادر أن يُحيي في حد ذاته، ولكن الذي كان يُحيي ويُنجي من الموت قديماً - كما عرفنا في دانيال مثلاً - هو أمانة الآباء الأولين في بر الله الكائن في وصاياه ونواميسه، فلما انحرفت العبادة اليهودية ودخلت في عقيدة البر الذاتي الذي يتأتى لصاحبه من مجرد تتميم الناموس وليس من الإيمان ببر الله، صار الناموس سبب هلاك بدل أن كان سبب تبرير «لأني أشهد لهم أن لهم غيرة لله، ولكن ليس حسب المعرفة. لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يُثْبِتُوا بر أنفسهم لم يُخْضَعوا لبر الله» (رو١٠: ٢، ٣).

لأنه لو دخلت البشرية كلها تحت أحكام الناموس بدون تدخُّل بر الله لهلك كل ذي جسد «لأن الكتاب (كتاب الناموس) أغلق على الكل

تحت الخطية، ليعطَى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون» (غل٣: ٢٢). لأنه لم يوجد ولن يوجد إنسان أمكنه أو يمكنه أن يوفي كل أحكام شريعة الله ويطبق كل وصاياه. هذا واضح من اعتراف بطرس الرسول من جهة استحالة تطبيق شريعة موسى على الأمم «والله العارف القلوب **شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً**، ولم يُميِّز بيننا وبينهم بشيء **إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم**. فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ، **لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله**، لكن بنعمة الرب يسوع المسيح **نؤمن أن نخلُص** كما أولئك أيضاً» (أع ١٥: ٨-١١).

وهكذا ينكشف وضعان أو وجهان متعارضان أشد التعارض للناموس، **الأول** أنه قادر أن ينجي من الموت، **والثاني** أنه يؤدي إلى الهلاك. أما الوجه الأول كونه قادراً أن ينجي من الموت، فهو ليس منه إنما يكون بسبب بر الله الذي يُحيي، إذا تمسك به الإنسان بالإيمان، وأما الوجه الثاني كونه يؤدي إلى الهلاك، فهو بسبب التمسك بالناموس دون بر الله!!

وهكذا يتضح تماماً أن الناموس بدون الإيمان بر الله هو هلاك محتم لكل من يتمسك به. أي أن الناموس كان واسطة مؤقتة فقط للتمسك ببر الله المحيي حتى مجيء المسيح، «لأن غاية الناموس هى المسيح للبر لكل من يؤمن» (رو١٠: ٤)، فلما ظهر المسيح معلناً بر الله في موته على الصليب توقف الناموس للأبد. لأن المسيح بموته أعطانا الحياة الأبدية مكملاً كل بر الله لنا. «**أما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس** (أي المسيح) مشهوداً له من الناموس والأنبياء (موسى يمثل الناموس، وإيليا

يمثل الأنبياء، وقد ظهرا معاً وشهدا له على جبل التجلي)، **بر الله بالإيمان بيسوع المسيح... متبررين مجاناً بنعمته بالفداء** (موت الصليب) الذي بيسوع المسيح الذي قدَّمه الله كفارة (ذبيحة تكفير لجميع خطايا الشعب)، **بالإيمان بدمه** (المحيي)، لإظهار بره (في الماضي)، من أجل الصفح عن الخطايا **السالفة** بإمهال الله ولإظهار بره في الزمان الحاضر، ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع. فأين الافتخار؟ قد انتفى! بأي ناموس؟ أبناموس الأعمال؟ كلا. بل بناموس الإيمان إذاً نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان (بالمسيح) بدون أعمال الناموس» (رو٣: ٢١-٢٨).

وهكذا ينتهي بولس الرسول في محاجاته عن التبرير بهذه الخاتمة السعيدة: أن التبرير قد انتقل نهائياً من أعمال الناموس إلى الإيمان بدم المسيح.[٧] ولكن ينبغي أن نؤكد أن بولس الرسول في محاجاته عن التبرير لم يُلغِ أعمال الناموس ولم يقلل من أهميتها، ولم يُلغِ الناموس باعتباره وصايا إلهية، ولكنه فقط ألغى التبرير بالناموس وبأعمال الناموس، ويكرر القول دائماً أن «الناموس روحي» (رو٧: ١٤) و«الوصية مقدسة وعادلة وصالحة» (رو٧: ١٢) وأننا «لابد أننا جميعاً نُظهَر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع، خيراً كان أم شراً» (٢كو٥: ١٠).

---

(٧) ينبغي ملاحظة أن كل أعمال الخير بدون بر المسيح لا تساوي شيئاً، ولكن إذا تبرر الإنسان بإيمان المسيح يصبح عمل الخير ذا مجازاة حسنة.

ولا يخلو هذا الكلام من إشارة بديعة مطمئنة أن ناموس الأعمال الذي كان يُظَنُّ أنه قادر على التبرير يقف الآن ليحاكَمَ أمام بر المسيح!! حيث بر المسيح، إن تمسكنا به حتى النهاية، يقدر أن يكافيء حسناً عن الخير ويعفو عن الشر! أليس برُّ المسيح يقيم من الموت؟

كيف أعلن الله بره في شخص يسوع المسيح:

قد وضح فيما سلف أن الناموس لم يكن واسطة للتبرير وإنما كان بالحقيقة مؤدِّباً ومهذِّباً للطبيعة البشرية، إذ عرَّفها بحدود الخطية وحقيقة الموت كعقوبة مُحتَّمة للتعدي، وتوقف عند ذلك. وبذلك ظهر بالنهاية أنه غير قادر على التقدم بالإنسان خطوة واحدة «**إذاً قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح، لكي نتبرر بالإيمان** (بالمسيح). **ولكن بعدما جاء الإيمان** (بالمسيح)، **لسنا بعد تحت مؤدِّب، لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع**» (غل٣: ٢٤-٢٦).

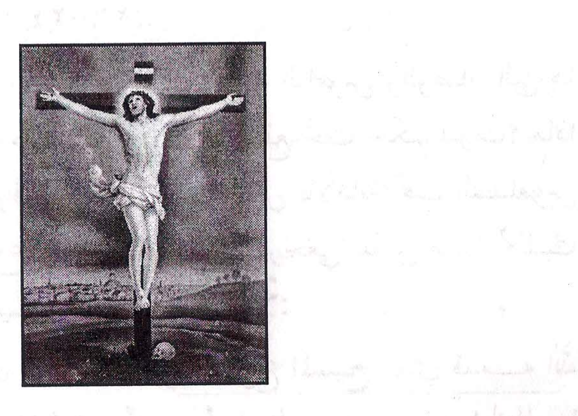
والآن ماذا عمل الله للإنسان بعد أن أعطاه الناموس والوصايا التي بها أدرك خطيته وأدرك أنه متعدي، وأدرك أنه واقع تحت حكم الموت؟ ماذا عن كل الخطايا التي اقترفها الإنسان وهو عائش بالأمانة تحت الناموس والوصايا؟ كيف استطاع الله توصيل برِّه بأثر رجعي للذين ماتوا تحت حكم الناموس؟؟ هنا يجيب بولس الرسول قائلاً:

«متبررين **مجاناً** بنعمته **بالفداء الذي بيسوع المسيح** الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه **لإظهار برِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة** بإمهال الله!!» (رو٣: ٢٤، ٢٥).

البر بذبيحة المسيح وتغطيتها للماضي والحاضر والمستقبل:

هنا **ذبيحة المسيح** الكفارية تمتد للوراء **لتبرير كل من تمسَّك ببر الله سالفاً وهو تحت عجز الناموس والجسد**، ثم تقف ذبيحة المسيح الكفارية أيضاً في الحاضر الممتد حتى الأبدية لتكمِّل عمل برِّ الله باستمرار، لكي يظهر أن الله بار دائماً وإلى الأبد «لإظهار برِّه في الزمان الحاضر، ليكون باراً ويبرِّر مَنْ هو مِنْ الإيمان بيسوع» (رو٣: ٢٦).

وهكذا تدخل البشرية كلها بواسطة ذبيحة المسيح داخل دائرة تبرير الله، ولكن ليس عن اضطرار أو إجبار، بل عن اختيار وإيمان. فبرُّ الله جُعل في شخص يسوع المسيح ليشمل الجميع، ولكن لا يتمتع به إلا من يريده ويسعى إليه حتى ولو كان عاجزاً.



بـــــــر الله

بر الله يسعى خلفنا:

وبر الله ليس عملاً مجمَّداً أو صفة لله غير متحركة نسعى إليها، بل هو فعل حي يبحث عنا حتى ولو كنا لاهين عنه أو متجاهلين قيمته أو غير مدركين نعمته: «لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعيَّن لأجل الفُجَّار، ... الله بيَّن محبته لنا **لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا**» (رو٥: ٦، ٨).

بر الله يُدخلنا إلى الله:

ولكن برَّ الله عندما استُعلن بموت المسيح الكفاري وأصبح في متناول كل من يؤمن ويتمسك بدم المسيح المحيي، لم يخرج عن دائرة الله، بل بقي بر الله كما هو من صميم طبيعة الله وعمله الشخصي، وكل من يتبرر يدخل فيه فيجد له موضعاً في الله: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم **يجتذبه الآب**» (يو٦: ٤٤)... «**إن دخل بي أحد** فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى» (يو١٠: ٩)، «ومن يُقبِل إليَّ لا أُخرجه خارجاً...» (يو٦: ٣٧).

بر الله قضاء ورحمة:

والتبرير في أصله يشمل قضاء أولاً، أي محاكمة ثم رحمة! ولكن الذي يبرره المسيح يقبل القضاء والرحمة معاً لأن المسيح أكملهما معاً وفي لحظة واحدة على الصليب!! **الصليب قضاء ورحمة**، قضاء بلغ أعنف عقوباته

وأكملها وأشملها؛ ورحمة بلغت أقصى عملها ومنتهى حدودها وتجلّت علانية في القيامة. ولأن الموت الذي ماته، ماته بجسدنا، والقيامة التي قامها، قامها بجسدنا، لذلك صار موته وقيامته لنا معاً. وهكذا تبررنا بالمسيح «**الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا**» (رو ٤: ٢٥).

التبرير يؤهلنا للعمل:

وتبرير الله لنا بواسطة موت المسيح على الصليب، مع أنه يعني صفحاً كلياً ومسامحة – أي حِلاً كاملاً لجميع خطايانا – إلا أنه ليس عملاً مجمداً أو فعلاً ينتهي عند هذا الحد. فالتبرير بدم المسيح يشمل بعد الصفح تكليفاً بالدخول في خدمة البر، أي خدمة الصليب، أي حمله والمناداة به والشهادة له. فالتبرير بالدم يحل الإنسان من كل خطاياه، ولكنه يربطه إلى الأبد بالصليب ليستمر عمله فينا وبواسطتنا، لأن التبرير بعد سفك دم المسيح أصبح فعلاً لا يتوقف أبداً فينا وبنا.

التبرير سلاح ضد الخطية:

والتبرير بالدم عندما يعطي صفحاً كاملاً عن الخطايا لا يعني أنه يمهد لمفهوم الاستصغار من قيمة الخطيئة، كأن التبرير يمهد للانحلال أو الاستباحة، لأن التبرير يظل يشمل في عمله المستمر الإحساس المستمر أيضاً بالقضاء أو المحاكمة بجوار العفو والغفران. فصورة الصليب والدم والعذاب لا يمكن فصلها عن القيامة، **وصورة الصليب تبرز في المقدمة لتعمل عملها المستمر بالتبكيت المر إزاء كل ميل نحو الخطيئة!** فإن كانت القيامة توحي إلينا

بالوجه المبهج للتبرير، **فالصليب لا يحتمل أي مهادنة أو مساومة مع الخطيئة في أية صورة لها.**

الخطيئة تعطل عمل التبرير:

ومن أجل هذا أصبح تبرير الله لنا في العهد الجديد لكل من يؤمن بدم المسيح يشمل استيفاءً كاملاً لعدل الله مع كل واحد منا، إذا راعينا باحتراس شديد مقدار ما عاناه المسيح في تكميل قضاء الله على الصليب في جسده عنا، هذا الذي من شأنه أن ينشئ فينا رعبة مخيفة إزاء كل ميل نحو الخطيئة. بحيث أن أية مهادنة مع الخطيئة بصورة مستمرة سيكون معناها توقُّفاً في مفعول التبرير المجاني، ورجعة إلى الدخول في قضاء الله! ومن هو كفؤ لهذا؟

ثمر البر يُزرع في سلام:

ولكي يتضح لنا عظم فعل التبرير الذي صار لنا بدم المسيح، ينبغي أن نعي تماماً أن كل من تبرر بدم المسيح يصبح باراً أمام الله الآب: «هكذا ببرٍّ واحد (المسيح) **صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة.** لأنه كما بمعصيةٍ الإنسان الواحد (آدم) جُعل الكثيرون خطاة؛ هكذا أيضاً بإطاعة الواحد **سيُجعل الكثيرون أبراراً**» (رو٥: ١٨، ١٩). ولكن كيف يجوز أن نحصل على هذا اللقب؟ هنا تظهر أعماق الصليب السرية، هنا ثمر القضاء المرّ والفحص الكامل الشامل الذي جازه المسيح، فهذا عينه هو الذي أعطانا ميراث هذا اللقب، فنحن بإيماننا بالصليب، نكون قد جُزنا هذا القضاء بأكمله، ونلنا العفو الكامل، وحُزْنا سلام الله

الكامل، وورثنا لقب المسيح الممتاز " البار". «سبقوا فأنبأوا بمجيء البار» (أع٧: ٥٢).

البر شهادة سمائية ولقب شرعي:

ولكن ميراثنا في لقب المسيح "البار" بواسطة الإيمان بالصليب والحصول على التبرير بالدم هو ميراث شرعي، كأنه صادر بحكم محكمة عليا تماماً. فحتى ولو احتشمنا أن نستخدمه لأنفسنا فنقول إننا أبرار، فإن الآب السمائي يرانا كذلك ويعاملنا كذلك، ليس فقط **كأننا** أبرار بل وأبرار بالحق، لأن حكم الله وقضاءه قد صنع هذا، وبثمن باهظ للغاية. الملك مات من أجل رعاياه والدم الإلهي المسفوك على الصليب هو هو الثمن لهذا اللقب.

البر امتياز عمل:

ولكن البرَّ ليس مجرد لقب أو صفة أخلاقية، بل حقيقة صادقة سنعامَل بها في السماء: «الذي اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون **قديسين وبلا لوم قدَّامه** في المحبة!» (أف١: ٤). إذن فالتبرير ليس مجرد ألقاب أو صفات وهبها لنا المسيح بدمه بل حالة تبرير ندخل بها في حضرة الله! نحن أبرار بدم المسيح في حضرة الله! هكذا تضمحل الخطية من أعضائنا في وقفتنا أمام الآب كل حين، وعوض الخزي جراءة وقدوم!! يا للبر، يا للبر، يا للبر الذي صار لنا بالصليب!! ليس في الأرض كلها ولا في كل ميراث الإنسان الفكري أو الأدبي أو اللغوي ما يمكن أن يعبِّر عن هذا الامتياز والحق الذي صار لنا من الله بواسطة المسيح.

في التبرير تكتمل مسرة الله وتنجح نعمته:

وبهذه الهبة أي التبرير الذي ورثناه بصليب المسيح والإيمان بدمه تتكشف لنا حقيقة النعمة التي افتقَدَنا بها الله الآب في شخص يسوع ابنه الحبيب. وأية نعمة هذه التي صارت لها القدرة والفعالية أن توقفنا الآن بحالتنا هذه أبراراً وبلا لوم أمام الله القدوس!! ولكن منَحَنا هذا اللقب بصفة شرعية وبحكم وقضاء سمائي حصل عليه المسيح وسلَّمه لنا، هو في الحقيقة أمر يتجاوز مجرد الإحساس والشعور، بل ينبغي أن يكون في أيدينا على الدوام كصك مختوم بالدم لعهد مقدس يربطنا بالله نمارسه عن شجاعة، لأن في ذلك يكتمل عدل الله الآب ويُسرُّ قلب المسيح الابن بنجاح عمل الصليب فينا.

التبرير يعبُر بنا من الماضي إلى المستقبل عَبْر حاضر مملوء نعمة:

والتبرير بدم المسيح كثيراً ما يُرى على أنه غفران ومصالحة وحسب، ولكن في الحقيقة هو أعمق بكثير من حدود الغفران والمصالحة، لأن الغفران والمصالحة تنتهي حدودهما عند الخلاص من ديون الماضي. ولكن واقع التبرير فيه قوة ونعمة تتجاوز الماضي بكل أثقاله وتمتد بنا لحاضر بلا لوم نعيشه في المسيح، ومستقبل تحملنا فيه النعمة على أجنحة الرجاء. «لكي أربح المسيح وأُوجد فيه. وليس لي برِّي الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان» (في ٣: ٨، ٩). وهنا يوضح لنا بولس الرسول أن هبة التبرير، وهي منحدرة لنا من الله رأساً عَبْر المسيح ودم المسيح، تجعلنا نعيش أبراراً في المسيح.

من إيمان لإيمان:

والبر وإن كان ثمرة إيمان، فهو في نفس الوقت يولِّد إيماناً بصفة مستمرة: «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن... لأن فيه مُعلَن بر الله بإيمان لإيمان» (رو١: ١٦، ١٧).

البر يؤهل لحياة إيمان دائم ووجود مستمر في حضرة الله:

وهكذا يلمع أمامنا إلهام بولس الرسول عندما يستطرد مباشرة مستشهداً بآية حبقوق النبي على أن برَّ الله فينا يولِّد إيماناً بصفة مستمرة، وهكذا يجعل الإنسان البار يحيا في إيمان دائم: «أما البار فبالإيمان يحيا» (رو١: ١٧)!! وهكذا تتكشف لنا القوة الدافعة المستديمة في تبرير الله لنا، إذ يعطينا الإيمان من خلاله كهبة إلهية لا تقف عند حد. وهكذا صار التبرير بدم المسيح قوة قادرة أن تمتد إلى الخطايا السالفة لتمحوها، وللحاضر الدائم لتُثبت وجودها بعمل الإيمان المتجدد. وكأنما الله بتبريره لنا - بواسطة دم المسيح - صار يجذبنا إليه بصفة دائمة وأبدية، «**لنوجَد فيه**» (في٣: ٩)! لأنه ينبغي أن نضع في اعتبارنا جداً أن الله ليس فقط باراً في نفسه بل هو بار ويبرِّر أيضاً. فبرُّ الله لا يستريح فيه حتى يجدنا أبراراً أمامه.

التبرير يزرعنا كأعضاء في جسد المسيح:

والبر الذي يهبه لنا الله بدم المسيح ليس فقط يجعلنا أبراراً أمامه، بل هو أعمق من ذلك لأنه يجعلنا **أبرارا فيه!** لأن تبرير المسيح لنا هو الذي

يؤهل اتحادنا به «وأوجَد فيه» (في٣: ٩)؛ لذلك فهو وإن كان في البداية تبريرا فرديا لكل واحد بمفرده لخبرة شخصية خاصة كما يحدث في المعمودية، إلا أنه في النهاية يجعلنا متحدين معاً لنصير أعضاء لجسد واحد، كما نحسه في الإفخارستيا. لا يمكن أن يتبرر إنسان بمفرده ليبقى باراً لنفسه، **لأنه يستحيل أن يصير إنسان باراً خارج جسد المسيح أو خارج الجماعة المتحدة بروح المسيح**. فالتبرير يخلِّص الفرد ليصنع الكنيسة، يعمِّد ليقدم إلى الإفخارستيا، الله يعفو عن كل واحد مثل الآخر تماماً ليجمعنا جميعاً تحت عفو واحد، بعد أن كنا تحت قضاء وقصاص واحد، فالتبرير هبة شركة يؤهل الجماعة أن يكون لها فكر واحد ورأي واحد وشكر واحد في المسيح!

البر الذاتي يجعل جسد المسيح يلفظنا خارجاً:

لذلك فإن أي انحصار في بر ذاتي أو شخصي يحرمنا في الحال من بر المسيح: «لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله **ويطلبون أن يُثْبتُوا بر أنفسهم لم يُخضعوا لبر الله**» (رو١٠: ٣). إذاً، فبرُّ الله شيء لا يُمتلَك للذات، ولكنه قوة ينبغي أن نخضع لها لتكمِّل عملها فينا وتحكم وتقود وتشدد. أي أن بر الله يملك علينا فلا ننسى أبداً أن بر الله هو قضاؤه ورحمته معاً التي أجراها لنا في المسيح، وهو حكمُه وعَفْوُه معاً اللذان كملا لنا بالصليب، وهذان لا يُمتلكان بدون المسيح. فنحن أبرار في المسيح، ومتبررون في المسيح، وباسم المسيح، وبدم المسيح. وبدون المسيح لا يتبرر أحد. إذن فالتبرير قوة تأتي إلى، وتحل على كل من ينفتح قلبه **بالإيمان بالمسيح**: «بر الله بالإيمان بيسوع المسيح **إلى كل وعلى كل**

الذين **يؤمنون**، لأنه **لا فرق**، إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رو٣: ٢٢، ٢٣). لذلك هنا يلمع أمامنا الإيمان كعمل فائق وعملاق، إذ يعني الخضوع الكامل بكل ما يملك الإنسان بالفكر والقول والعمل تحت فعل الله المبرِّر بدم المسيح، بيقين وثقة أن الله يطلب تبريرنا، ويعمل لذلك بقوة دم المسيح فينا.

لكي نلتحم في بر الله، يلزمنا خضوع كلي لله وانسجام في العمل بوصاياه:

ولكن من أخطر الأمور أن يظن البعض أن الإيمان المطلوب للتبرير هو مجرد ثقة شخصية في الله تعتمد على القوة النفسانية أو القدرة العقلية، أو مجرد تعهدات نقولها في الصلاة ونحن منفعلون، يستحيل أن تكون المواهب السمائية رهن قدرات نفسانية. فالإيمان المطلوب للتبرير يلزم أن يكون على مستوى العمل الروحي، أي على مستوى الخضوع والتسليم لله **بالمشيئة وبالفكر وبالعمل معاً**، أي يلزم أن تشهد أعمالنا لإيماننا، كما شدد على ذلك يعقوب الرسول (يع٢: ١٨). الإيمان الذي يبرر هو إيمان صابر محتملٌ راضٍ صافحٌ مُذعنٌ، إيمان باذل بالفرح، عامل بالمحبة، متألم بالشكر، إيمان ناطق بفضل الله ورحمته في الضيق والحزن حتى ومن أتون التجربة. هذا هو الإيمان الذي يحلُّ على صاحبه بر الله ومجد الصليب. ولا يمكن أن يوجد إيمان حقيقي بدون عمل روحي، كما لا يمكن أن يوجد عمل روحي بدون إيمان صادق، وهذا أيضاً ما شدَّد عليه يعقوب الرسول: «الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته» (يع٢: ١٧)، كذلك أيضاً ينبه نفس الرسول «وبالأعمال أُكْمِل الإيمان» (يع٢: ٢٢).

عمل الناموس لا يبرر ولكن عمل الإيمان يبرر:

لذلك يلزم أن نتنبه دائماً إلى كل الآيات التي وردت في رسائل بولس الرسول والتي ينص فيها على أن الإيمان هو المدخل الوحيد لبر الله. إذ أنه فيها جميعاً، وهو لا يلغي العمل الروحي أو السلوك بالتقوى الملازم للإيمان، وإنما يريد فقط كما سبق وقلنا أن **يلغي الناموس والعمل بالناموس كأساس للتبرير، ليضع مكانها الإيمان بالمسيح الذي لا يمكن بلوغه إلا بالخضوع العملي والسلوك المشهود له لكل وصاياه.** «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو١٤: ١٥).

التبرير ليس استحقاقاً بل "تجاوز عدم الاستحقاق":

لذلك يلزم أيضاً أن نتنبه إلى أنه حتى الإيمان الذي يكون على مستوى العمل الروحي والخضوع لفعل الله المبرِّر والمخلِّص لا يجعلنا **مستحقين** لتبرير الله، كأن مثل هذا الإيمان هو من مجهودنا البشري، لأن الإيمان ليس هو **فعلاً بشرياً** بل هو **رد فعل** بشري **لفعل إلهي.** الله أنعم علينا بالمسيح يسوع، دم يسوع المسيح يستثير فينا الإحساس والانفعال لنعمة الله التي سكبها على البشرية كلها: فكل من يؤمن بالمسيح، إنما يستجيب لتأثير نعمة الله الفاعلة في الفكر والضمير الإنساني لتستحثه لقبول عملها، فالإيمان بالمسيح هو استجابة لعمل الله فينا.

إذن فمثل هذا الإيمان المدعَّم بالعمل الروحي والخضوع والطاعة الصادقة لله هو أيضاً من الله وبسبب المسيح. لذلك لا يُقال إننا بالإيمان نكون مستحقين لبر الله، بل بسبب إيماننا «يُحسب لنا براً» (رو٤: ٥)،

«ولا بعدم إيمان ارتاب (إبراهيم) في وعد الله، بل تقوَّى بالإيمان معطياً مجداً لله، وتيقَّن أن ما وعد (الله) به هو قادر أن يفعله أيضاً، لذلك أيضاً حُسب له براً، ولكن لم يُكتب من أجله وحده...» (رو٤: ٢٠-٢٤). هنا كلمة «**يُحسب**» تفيد معنى **تفضل الله بالتبرير متجاوزاً عدم استحقاقنا**. وطبعاً هذا التجاوز قائم على صراخ ابنه الحبيب!!

التبرير ينشئ بعمل الإيمان رجاءً ممتداً بقدر أمانتنا:

ومن الأمور المهمة جداً في ممارستنا لتبرير الله لنا أنه حينما نتقدم في حياة الإيمان العامل بالله والخاضع لله ويحل علينا فعلاً بر الله وفعل دم المسيح، يكون من مفاعيل التبرير الصادق جداً الإحساس العارم بالرجاء، فالرجاء هو من عمل التبرير بدم المسيح، أي أننا عندما نجوز **قضاء الله وعَفْوَه** معاً بواسطة التبرير بفعل دم المسيح و كعمل من أعمال الصليب، يشرق داخلنا رجاء منقطع النظير، **لأن تذوُّق الخلاص في الحاضر ينشئ باستمرار ثقة بخلاص في المستقبل.**

وهذا مما جعل كثيرين من البروتستانت يعتقدون أنه بمجرد أن يحس الإنسان بالخلاص يظن أنه قد خلص نهائياً بفعل ميكانيكي، حيث لا يكون رجوع في ذلك قط. ولكن الحقيقة أن هذا الشعور أو هذه العقيدة فوق مستوى الواقع الإيماني، **لأن التبرير فعل يعتمد على رد فعل، فالفعل قد كمل حقاً بسفك دم المسيح ولا رجعة فيه. ولكن رد الفعل الذي هو مدى استجابتنا وخضوعنا وتكريمنا بسفك دم المسيح الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بالعمل بوصية المسيح،** هذا لا نستطيع أن نقول إنه لا رجعة فيه بل كثيرون رجعوا في استجابتهم حتى إلى حد الإنكار والتجديف.

إذن، فإمكانية توقُّف عمل تبرير الله لنا تتهدَّدنا إذا نَكَثْنا العهد، أو إذا تمسكنا ببر أنفسنا، وعاندنا الروح، حيث نفقد بر الله وينحسر عنا فعل دم المسيح: «لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يُثبِتُوا بر أنفسهم، لم يُخضَعوا لبر الله» (رو١٠: ٣). وهذا أيضاً لا يكون بلا رجعة، **بل التوبة صديقة الإنسان قائمة تناديه حتى باب القبر!!**

التبرير والسلوك

التبرير يتثبت أو يتزعزع بالسلوك:

ليس هذا معناه أن تبرير الله لنا أمر مشكوك فيه، حاشا! إن دم المسيح يضمن عهد الله لنا أننا قد عبرنا الدينونة وجُزْنا قضاء الله وعفوه بالصليب. ولكن يلزم أن نشهد لعهد الله وتبريره لنا بحياة روحانية تتناسب مع الملكوت الذي إليه دُعينا، لأنه لا يزال أمامنا جميعاً دينونة قادمة لها قضاؤها ولها تبريرها بمقتضى هذا العفو الإلهي: «لا شيء من الدينونة **الآن** على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو٨: ١). فالله لا يمكن أن يكذب، ولكن المخجل حقاً هو أننا قد نكون كاذبين في ادعائنا أننا حاصلون على تبرير الله، إذ نقول ولا نفعل. ومرد هذا ليس خطأ في الإيمان بل خطأ في الحياة وعدم الرجوع إلى شهادة في الضمير التي لا تستند فقط على الإيمان بل وعلى السلوك أمام الله والناس، وشهادة الضمير كفيلة دائماً أن تفضح مدى ادعائنا في تبرير الله لنا. ومهما كان شعورنا بتبرير الله لنا، **فلا ينبغي أن ننسى أننا قادمون جميعاً على دينونة تتطلب مزيداً من التبرير!!**

البر الكاذب ينشئ رجاءً كاذباً:

وأيضاً قد يتزيَّف لنا رجاء كاذب يكون مبنياً على تبرير كاذب. هنا يكون الدليل الذي نكتشف على نوره مثل هذا التزييف هو **مقدار استعدادنا للموت ومواجهتنا للدينونة العتيدة أن تكون!** لأنه معروف جيداً أن تبرير الله لنا بدم المسيح ينشئ فينا **إحساساً بالغفران، وثقة في عبور الدينونة الآتية** كحالة نعيشها كل يوم ونتحرك فيها وبها، لا تجمِّدنا ولا نجمِّدها، لأن الإحساس بالغفران والثقة بعبور الدينونة الآتية هما من المقوِّمات الأساسية للحياة الروحية النشيطة، لأن الحياة الروحانية لا يمكن أن تقف في إيمانها ورجائها عند حدود الموت: «فإننا بالروح من الإيمان، **نتوقع رجاءَ برٍّ**» (غل٥: ٥). ولكن نلاحظ في كلمة "نتوقع رجاء بر" أن التبرير الذي ننتظره ليس هو حالة في أيدينا الآن بل حالة نتوقعها، فالتبرير القادم يستحيل تجميده الآن بالإيمان بل هو حالة نتحرك ونمتد فيها بالرجاء والتوقع المستمر: «مَنْ سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرِّر، من هو الذين **يدين؟** المسيح هو الذي مات... الذي أيضاً **يشفع** فينا» (رو٨: ٣٣، ٣٤) «الذين ينالون فيض النعمة **وعطية البر سيملكون في الحياة** بالواحد يسوع المسيح» (رو٥: ١٧).

السلوك الروحي يُسهِّل علينا العبور من حاضر البر إلى مستقبله:

وهكذا يدخل في صميم إيماننا بالتبرير بدم المسيح، التبرير في الحاضر والمستقبل: الحاضر بالإيمان، والمستقبل بالرجاء الممتد بعمل الإيمان والمؤسَّس على العمل الروحي وشهادة الضمير كل يوم: «فإننا بالروح

من الإيمان، نتوقع رجاء بر» (غل٥: ٥).

التبرير والخوف من الدينونة

الخوف من الدينونة لا يمكن فصله عن العفو الذي نترجَّاه:

ولكن ليس معنى إيماننا بالتبرير في المستقبل أن تنتفي قيمة الأعمال، أي أن يتعارض التبرير الآتي مع الدينونة المزمعة أن تكون بحسب الأعمال. **فالتبرير القائم أساساً على قضاء الله لا يمكن أن يلغي قضاء الله، كذلك حتى ولو كان التبرير يقدَّم على أساس اقتران العفو مع القضاء. فالعفو لا يمكن أن يلغي القضاء أو يقلل من قيمته أو خطورته.**

ولكن اقتران القضاء والعفو في التبرير يعطينا فرصة لاقتران الخوف مع الرجاء على نفس المستوى. فالتبرير يدعِّم خوف الله في قلوبنا كما يدعِّم التشبث برجاء العفو، كوحدة عضوية متماسكة لا يمكن فصل مكوِّناها. الذي يريد أن يعيش في رجاء عفو قادم، عليه أن يعيش في خوف مقدس حاضر لقضاء الله. هنا تنشأ حتمية اقتران الإيمان والرجاء بالعمل الروحي كضرورة للحاضر والمستقبل. وهذا الاقتران بين **الإيمان والعمل** ليس هو مجرد عقيدة بلا أساس، ولكن أساسها معروف وواضح، فوصية الله التي هي مصدر أساسي للإيمان والرجاء والتبرير في الحاضر هي هي نفسها المصدر الأساسي الذي سيكون للحكم والدينونة، بل وحتى المسيح نفسه باعتباره "الكلمة" المحيية والمخلِّصة والمبرِّرة بعفو الدم، هو هو نفسه الذي سيجلس ويدين ويحكم

«من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا» (رو٨: ٣٤).

الخوف من الدينونة يزيد من خضوعنا ويؤمّننا ضد الطمأنينة الكاذبة:

وهكذا نجد أن عقيدة اقتران الإيمان بالأعمال قائمة قياماً عضوياً في التبرير، وفي الوصية، وفي وظيفة المسيح، وفي طبيعة عمله في الحاضر والمستقبل، حيث يقف الخوف من قضاء الله والدينونة المزمعة أن تكون بحسب الأعمال عاملاً من أعظم وأهم العوامل التي تؤدي إلى:

أولاً: الخضوع المستمر للوصية بالجهاد، ولتأمين النشاط والسهر الروحي.

وثانياً: حفظ الخلاص ضد عوامل الطمأنينة الكاذبة والرجاء الكاذب.

التوازن بين الثقة في العفو والخوف من الدينونة:

إذن فمتى يصبح خلاصنا غير مزعزع؟ واضح أن خلاصنا يصبح غير مزعزع حينما يصبح إيماننا في تبرير الحاضر متوازناً ومتعادلاً مع تبرير المستقبل، وهذا لن يكون صحيحاً إلا إذا كانت ثقتنا في العفو والغفران بالدم متوازنة ومتعادلة مع خوفنا من قضاء الله والدينونة المزمعة أن تكون بحسب الأعمال. وهذا من شأنه أن يولِّد فينا حباً قلبياً حاراً من نحو المسيح الشفيع الفادي، وفي نفس الوقت غيرة ملتهبة وسهراً على القداسة والطهارة والعمل الروحي الذي يزكّي الرجاء إزاء قضاء الله القائم منذ الآن في صوت الضمير ويؤمِّنه ضد الثقة الكاذبة.

منظر المسيح ممزقاً على الصليب يذكِّرنا دائماً بخطورة عدل الله:

وقد تبدو الدعوة للخوف من قضاء الله والاحتراس الشديد من الدينونة المزمعة أن تكون، كأنها مُبالَغ فيها عند بعض المؤمنين، أو كأنها أصبحت بغير ذات ضرورة عند البعض الآخر، باعتبار أن المسيح استوفاها عنهم. ولكن لكي نقنع هؤلاء وهؤلاء بأهمية وخطورة احترام مخافة الله جداً واعتبار أن قضاء الله — كما نص الإنجيل — محتَّمٌ ودينونته المزمعة أن تكون هي رهيبة للغاية؛ نُذكِّرهم جميعاً بمنظر الابن الوحيد المحبوب وهو ممزَّق الجسد على الصليب كعيِّنة لقضاء الله ونموذج للدينونة العادلة المزمعة أن تكون بحسب الأعمال.

دعوة المسيح لنا بحمل الصليب هي دعوة لممارسة قضاء الله إنما في ظل مساعدته:

على أن ما أكمله المسيح على الصليب ليس عملية منتهية تماماً فيما يختص بكل من يقبل المسيح ويؤمن به، كأنه لم يصبح علينا أن نُصلب أو أن نتألم أو نُضطهد بنفس العنف ونُرفض بنفس القسوة. فالمسيح حذَّرنا من ذلك كله، وينبهنا لنكون على مستوى صليبه دائماً، أي أن نحمل نحن أيضاً الصليب باستعداد الرفض والتألم والظلم والاضطهاد والحكم والموت. وأن نكون نحن أيضاً على مستوى إنكار الذات والطاعة لمشيئة الآب حتى الموت، وأن لا نخاف أو نجزع من الموت أو من القتل الجسدي. لكن ما معنى هذا كله؟ أليس ذلك هو نفس الدعوة لاجتياز قضاء الله مع المسيح؟ حتى إذا مُتْنا معه نحيا أيضاً معه! أي حتى إذا حوكمنا معه نتبرر معه!!

إذن، فطوبى لمن يجوز منذ الآن قضاء الله وحكمه ودينونته بمؤازرة المسيح المصلوب على أيدي الناس في هذا العالم، لأنه إذ يتزكَّى بنعمة المسيح وبرِّه يأخذ عربون العفو للقضاء المزمع أن يكون. على أن كل ما نجوزه من الآلام والاضطهاد والظلم والرفض على مستوى صليب المسيح هنا في هذا العالم، قادر أن يختزل فعلاً من صورة الدينونة المزمعة أن تكون ويهوِّن من رعبها، أي أنه قادر أن يزكي عمل الرحمة فوق العدل في ضمائرنا، حيث يصبح التبرير أقرب إلى العفو منه إلى القضاء.

التبرير عبور متواصل من قضاء إلى عفو ومن دينونة إلى رحمة:

وهنا يلمع أمامنا جانب من الجوانب السرية لتبرير الله لنا بواسطة صليب المسيح، وهو أن التبرير الذي أكمله لنا المسيح على الصليب لا يؤول إلينا بالإيمان بطريقة آلية كأن نصبح في لحظة وإذا نحن مخلَّصون!! **تبرير المسيح لنا قوة فعالة في إنساننا الجديد نعبر بها من قضاء الله إلى عَفْوه، من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، من ظلمة إلى نور، من دينونة إلى بر؛ وذلك خطوة خطوة مع المسيح «بإيمان لإيمان»** (رو١: ١٧)، و"من رجاء لرجاء". فصليب المسيح لا يُنهي على خضوعنا لقضاء الله وتأديبه بل يهيئنا له بمؤازرة ونعمة.

إن تبرير المسيح يخلق فينا على الدوام، وبصورة مستمرة، قدرات روحية جديدة لعمل وجهاد أكثر يكون موعَزًا به من النعمة ليناسب قضاء الله أثناء تقديم حساب الوكالة.

التبرير والقداسة

تبرير المسيح يرفع سلوكنا إلى مستوى معين من القداسة نلتزم به:

هنا تبرير المسيح للمؤمن يصبغ الحياة بسلوك روحي ملتزم، يكون له طابعٌ معيَّن يتحتم أن يحافظ عليه الإنسان جداً ليس من جهة ما يعثره من الداخل فقط بل وما يعثره من الخارج أيضاً، حتى تصبح الحياة نفسها شهادة لبر المسيح من الداخل والخارج «إن كان أحد مدعوٌّ أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو سكيراً أو خاطفاً أن لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا» (١كو٥: ١١). في هذه الآية نجد **الخطية والبر لا يتصالحان أبداً**، لأن في ذلك تدميراً لحالة المصالحة التي تمت على الصليب.

نحن تصالحنا مع الله بموت ابنه عندما جاز القضاء عنا كخاطئ تحت الدينونة: «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥: ٢١)، أي أن تبرير الله لنا بواسطة المسيح لم يعد يحتمل المصالحة مع الخطيئة التي تسببت في موت المسيح، لماذا؟ لأن التبرير معناه أننا نحيا بالروح في المسيح مصلوبين معه للعالم والجسد والخطيئة. فكيف نجمع بين موت المسيح فينا وحياة الخطيئة فينا معاً وفي نفس الوقت؟ إن قوة المسيح لا تنشئ فينا خطيئة بل قيامة: «**متشبهاً بموته لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات**» (في ٣: ١٠، ١١). وهنا إشارة سرية أن كل **فعل إماتة ينشئ فعلَ قيامة أي حياة!!** هنا الصلة بين العمل الروحي وفعل الروح القدس تكاد تبلغ درجة الإلهام، لو انتبهنا.

وإلى هنا نكون قد بلغنا إلى خاتمة نيِّرة لموضوع التبرير، فالتبرير قوة الحياة

الجديدة في المسيح يسوع، وهو النور الذي على هداه نتلمس الطريق إلى الحياة الأبدية، **لأننا في تبرير المسيح لنا نأخذ منه شركة في قوة موت لشركة في قوة قيامة على مدى الطريق كله.** فالتبرير ليس قوة اشتعال لبداية ونهاية سريعة في مفهوم الخلاص، بل هو لَهَب ذو وقود إلهي يُدخلنا في حركة ونمو وتغيير لا يهدأ، يحدُّه من اليمين سيف نار قضاء الله المتقلب، ومن اليسار نور الحياة الأبدية الذي يقودنا إلى الخلود، ويحجز عنا طغيان الظلمة الخارجية على مدى الطريق: «حتى كما ملكت **الخطية فينا للموت** هكذا **تملك فينا النعمة بالبر** للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو٥: ٢١).



بر الله قضاء ورحمة:

- التبرير في أصله يشمل قضاءً أولاً أي محاكمة ثم رحمة!

- ولكن الذي يبرره المسيح يقبل القضاء والرحمة معاً لأن المسيح أكملها معاً وفي لحظة واحدة على الصليب!!

- الصليب قضاء ورحمة، ورحمة بلغت أقصى عملها ومنتهى حدودها وتجلت علانية في القيامة.

- ولأن الموت الذي ماته بجسدنا، والقيامة التي قامها قامها بجسدنا؛ لذلك صار موته وقيامته لنا معاً.

- وهكذا تبررنا بالمسيح «الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا» (رو٤:٢٥).